التطور الاجتماعي والسياسي الحديث

في الشرق الادنى

خلاصة المحاضرة التي ارتجلها الدكتور عبد الرحمن شهبندر بالانكليزية على بعثة خريجي جامعتي اكسفورد وكامبردج في نزل الجامعة الاميركية في القاهرة في الثامن والعشرين من يوليوسنة ١٩٣١ فكان لها وقع كبير عندهم

سيداتي وسادتي : قال احد رجال التصوف من العرب المتقدمين ماخلاصتهُ : (اعربنا في كلامنا فلم نلحن ولحنا في اعمالنا فلم نعرب) واني لأرجو انهُ اذا كان لا بد لي من اللحن ان يكون لحني في الكلام وتركيب الجمل لا ان يكون في الافكار والشعور

ان انواع التطور في الامم من اجتماعي وديني واخلاقي وسياسي واقتصادي هو الى درجة بعيدة تلك الظواهر والعلامات الدالة على الطريقة الحيوية ذاتها التي تنمو بموجبها الاقوام وتتألف بجميعها كيانها الاجتماعي . وما اشبه هذه التطورات المتنوعة بالمصابيح الكهربائية ذات الالوان المختلفة المعلقة في الثريا الواحدة فانك اذا ماضغطت على الزر الكهربائي ووصلت المجرى لاتلبث ان ترى هذه المصابيح جميعاً قد اشتعلت وان لم يكن اشتعالها على نسبة واحدة ولون واحد

ولا بدَّ لي اذا اردت ان ازودكم بنظرة شاملة تتناول الشرق الادنى في انقلاباته الحديثة من تقسيم التاريخ الذي اعالجهُ الى ثلاثة ادوار على طريقة أئمة التاريخ فأقول : « التاريخ القديم » و « التاريخ المتوسط » و « التاريخ الحديث » وتاريخنا القديم بالمعنى الذي نهجتهُ هو تاريخ السلطان عبد الحميد العثماني واستئثاره بالملك . وأما التاريخ المتوسط فهو تاريخ الانقلاب العثماني الذي تمَّ في شهر يوليوسنة ١٩٠٨ والتاريخ الحديث يبتدئ منذ اعلان الحرب العالمية الى اليوم

واسمحوا لي الآن ان اصف لكم العصر الحميدي وصفاً موجزاً وابين لكم الاسباب التي دعتني الى تسميته بالتاريخ القديم :

ان معظم الشؤون التي قرأتم خبرها في تاريخ الاعصر الماضية تنطبق من اوجه عديدة على العصر الحميدي فهناك اتحاد في السلطتين الدينية والدنيوية وكان الخليفة يدعى ظل الله في الارض وتتمثل فيهِ هاتان السلطتان تمثيلاً يشبهُ من اوجه عديدة ماكانت عليهِ الحال في اوروبا على عهد البابوية . وكان انصار الخليفة بالاجمال اعياناً من الطبقة العظامية وضباطاً من امراء الجيش ورجالاً ينتسبون في مظاهرهم ووظائفهم الى خدمة الدين فكان الخليفة

والحالة هذه قابعاً على ناصية الحال وكانت المراقبة على المطبوعات ، ولا سيما الكتب التاريخية والسياسية والاجتماعية ، ثقيلة لا تحتمل . واضرب لكم على ذلك مثلين يدلانكم على الذهنية التي كانت مخيمة في تلك الايام الواحد مما وقع لي شخصياً والآخر مما سمعتهُ من احد اساتذتي

كنت ذات يوم وانا تلميذ في الجامعة الاميركية في بيروت في مجلس ومجابي وكل مراقب الصحف وهو شاب انيس من اصل دمشقي فرأيت بيده مجلة عربية يتصفحها فاذا المجلة هي مجلة « المشرق » للآباء اليسوعيين في بيروت وفيها بحث طريف عن الاسد والاستدلال على وجوده في ديار الشام . فطفقت لأول وهلة انهُ كان يمم النظر في هذه المقالة لتحقيق موضوعها لكني فهمت منهُ انهُ كان يراقبها ليرى هل فيها ما تؤاخذ عليه المجلة من العبارات فأحببت أن اداعبهُ فقلت لهُ انظر ان في هذه المقالة كلة خفية فان الكاتب يصف الاسد بقوله «سلطان الحيوانات» افيجوز ان تطلق كلة سلطان يا ترى على غير سيدنا الخليفة الاعظم؟ فامتعض لونهُ وارتبشت اطرافهُ وقال ماذا ينبغي ان يكتب اذن ؟ فقلت لهُ « امبراطور الحيوانات» فضرب على «سلطان» ووضع مكانها « امبراطور » لأن هذا من ألقاب الافرنج !

واما الحديث الثاني فان تلميذاً انهى دروسهُ في البلاد العثمانية ثم قضى سنتين في اوربا في الدرس والتتبع ولما عاد كان يحمل في حقائبه الدفاتر التي جمع فيها ملاحظاته الفنية وفي احد هذه الدفاتر معادلة كيماوية وردَ فيها تركيب الماء بالصيغة العنصرية المعروفة «هيدورجين اثنان في اوكسجين واحد » وهي تكتب بالاختزال اللاتيني (H_2O) فلما اطلع عليها الرقيب امر بتوقيف التلميذ بتهمة القذف في الذات السلطانية إذ أنهُ قال ان حميد الثاني (H_2) هو رجل صفر لا قيمة لهُ (O) ولولا تدخل اناس من اهل العلم والفن ما كان خلاص هذا المسكين هيناً . ومن الاسف الذي ما بعده اسف ان الارهاق الذي تئن منهُ بلادنا في هذا العهد بسبب الاستبداد يحمل الكثير من ابنائها على الترحم على العهد الحميدي مع ما فيهِ من ترهات القرون الوسطى . ولكن ليس من السداد ان يحن الناس الى امراضهم القديمة بسبب الامراض الحديثة التي يعانونها

وان اكبر فضيلة يدعى اليها الناس في عصر الاستبداد ودور الاستبداد هي الطاعة والانقياد واعظم رذيلة ينفرون منها هي الاستقلال بالرأي وكثيراً ما اطلق اهل المنافع واتباعهم على هذا الاستقلال الفكري كلة « الانشقاق » او « الخروج على الجماعة » لتقبيحهِ وتنفير الناس منهُ . ولم يعدم السلطان عبد الحميد من يفسرون لهُ الآيات والاحاديث تفسيراً ينطبق على ارادتهِ ويأتلف مع طراز حكمهِ لان التفاسير الدينية في الحكومات الاستبدادية كثيراً ما تتسلم وحيها من الظروف السياسية واوهام الحكام ، واذكر ان شهيداً من شهداء العرب المشهورين هو السيد عبد الحميد الزهراوي من مدينة حمص في سورية الذي في سنة

١٩٠١ رسالة في الاصلاح الديني اعتمد فيها على اجتهاده الشخصي ومن الموضوعات التي طرقها وحمل عليها حملة شعواء اشتغال علماء الكلام عندنا في تلك الايام بجواز بيع العبد او بيع يده او بيع اصبعه كما يبيع الرجل حجرة من بيته مثلاً فقال ان الرق اصبح ملغيًا بالصورة الرسمية فلا مجال والحالة هذه لبيع العبد كله فما بالك ببيع يده او بيع اصبعه!

عدَّ المشتغلون بالكلام هذا النقد خروجاً على الدين فهو لذلك خروج على الخليفة الاعظم فقبض الوالي على السيد الزهراوي وعلى من اشتبه فيه انهُ من شركائه في التأليف فأصابني من ذلك رشاش ولولا صغر سني لسافرت مع السيد الزهراوي منفيًّا ومكبلاً بالحديد

وقصارى القول ان الروح التي خيمت على تلك الادارة الثقيلة كانت مشبعة بالسعي لحجز الناس في حجرات منيعة على النور بيد أن الاشعة الاولى التي اخترقت الجدران الكثيفة التي يعيش وراءها السلطان اظهرتهُ بهيئة المرعبة وثوبهِ القشيب وهكذا شأن النور في كشف الظلم فان الجزء منهُ مهما كان صغيراً يكفي لتبيان معالم الطريق على من كان يتخبط في الدياجي

﴿ الانقلاب الخطير في سنة ١٩٠٨ ﴾

كانت الشعوب العثمانية مستغرقة في نومها على فرش وثير من استسلام وغرور وتصديق فأفاقت فجأة في صباح اليوم الرابع والعشرين من تموز سنة ١٩٠٨ على قرع طبول الحرية وانفجار سدود الاستبداد وكانت الاصوات تتعالى من هيئات جمعية « الاتحاد والترقي » السرية بان الشعب العثماني اصبح حرًّا مختاراً في تنظيم نفسه وتأليف حكومته منهُ وفيه واليه ولما كان حكم السلطان عبد الحميد القاهر قائماً على الزعم بأنهُ شخصٌ مقدسٌ يكاد يكون موجوداً في كل وجود وعالماً بكل شيء ومسخراً لكل قوة تعجزه عن اخضاع ثورة في الجيش صغيرة ابتدأت في مكدونيا افضى الى سقوط ادارته الى الحضيض سقوطاً مريعاً وجميع الرأي القائل بقدسيته وعصمته وقوته الخارقة اصبح رأياً فاسداً ونظرية بالية

لا جرم ان يكون هذا التغير الدستوري من الوجهة الداخلية كما هو من الوجهة الخارجية ذا شان خطير من الطراز الاول . وفي الحق انهُ كان ثورة دينية اجتماعية كما كان ثورة سياسية وقد انتهت بانتهائه تلك المباحث الكلامية وخمدت معهُ روح القرون المظلمة واصبحت الاقوام العثمانية من جرائه في بيئة جديدة واتجاه غير مشهود

﴿ وجهته الداخلية ﴾

وما لم نحط بالادارة الجديدة على عهد فتيان الترك وقدر شأن ثورة سنة ١٩٠٨ قدرها فمن المتعذر علينا ان ندرك التغيرات الاجتماعية الطارئة في الشرق الادنى في الآونة الحاضرة والخلاصة ان ثورة ١٩٠٨ هي مفتاح سر الموقف الحاضر

فقد عشنا على عهد السلطان او الخليفة في جوّ مشبع بروح الجامعة الدينية المخدرة

بقيت العناصر العثمانية المهمة في حالة خضوع اختياري . ولكن ظهور عثمان التركي على المسرح غيّر وجهة هذه السياسة لان هؤلاء الاحداث كانوا ثمين بفكرة التربية القومية الوطنية فلما سعوا لتطبيق مناهجهم في تتريك العناصر وخلق امبراطورية كبرى متجانسة احدثوا رد فعل في الشعوب العثمانية الاخرى وفي مقدمة هذه الشعوب يأتي الشعب العربي طبعاً . ولكي تقدروا المدى الذي ساروا فيه من هذه الناحية اضرب لكم مثلاً من تقديسهم اتيلا وجنكيزخان وهولاكو وتيمورلنك وغيرهم من اداة التخريب العلمي والمجازر البشرية ووضعهم إياهم في مصاف زعماء العالم وانبياء البشر بل لم يتورعوا عن الاشادة بذكر عبادة طوران الوثنية ووضع الذئب الابيض معبود القبائل المغولية الاولى في مقابلة الاله الحي الفرد الصمد معبود السامين

هذا من الناحية الايجابية واما من الناحية السلبية فقد رأى هؤلاء الاتحاديون قيام العرب عقبة كؤوداً في طريقهم فتحينوا الفرصة من اعلان الحرب العالمية للقضاء عليهم فبعثوا طاغيتهم احمد جمال باشا فنكل بهم تنكيلاً سيبقى حجة دامغة يد العرب على مظالم الاتحاديين ومغارمهم وانتهت هذه المآسي الفظيعة بالمشانق في سنتي ١٩١٥ و ١٩١٦ ومن اغرب ما سيلاحظهُ المؤرخ في الاعصر القادمة ان تجري هذه الفظائع باسم الاعتصار للدين والدفاع عن الخلافة الاسلامية وفي اقل من عشر سنوات ان تطرد تركيا الخليفة من بلادها وتعلن المذهب اللادِيني الحر

كانت الغاية من الجامعة التركية ضم جميع العناصر الطورانية في الاناضول وتراقيا والقفقاس واذربيجان والتركستان تحت لواء جامعة عنصرية جديدة تحل محل الجامعة الدينية القديمة وأما النهضة العربية فكان هدفها ادارة لامركزية تحفظ للغة العربية كيانها وتقضي ببقاء جزء من الموارد الحكومية في البلدان العربية ليصرف على التعليم والمشروعات الاقتصادية المحلية . ولكن المشانق البست النهضة العربية ثوباً جديداً فجعلتها جامعة قومية سياسية على طراز الجامعة الطورانية وغيرها من الجامعات الحديثة

وهكذا أضفنا الى التاريخ الاجتماعي من قضيتنا التركية العربية مثالاً آخر على ان التوسل باسم الاخوة الدينية في الظاهر لاستثمار المنافع من الاقوام الاخرى في الباطن عمل محكوم عليه بالفشل . وان الصراع في مثل هذه المعارك ينتهي بتفوق الفكرة القومية

﴿ وجهتهُ الخارجية ﴾

هذه بعض النتائج التي نتجت من الانقلاب العثماني من الوجهة الداخلية فلننظر الى نتائجه من الوجهة الخارجية : — تحينت النمسا فرصة الضعف الناشيء عن دور الانتقال من العصر الحميدي الى العصر الدستوري فاعلنت ضم ولايتي البوسنه والهرسك مما سبب امتعاضاً شديداً في الاوساط السلانية وكاد ينتهي باعلان الحرب بين النمسا والصرب ولكنهُ على كل حال

مهّد السبيل لجناية بوصنه سراي ثم اعقب ذلك فتنة جزيرة كريت والحاقها ببلاد اليونان مما أثار مطامع الاوربية في « الرجل المريض » من جديد فوثبت ايطاليا على طرابلس الغرب وثنة لجناية فلما سبق لها نظير ثم تحالفت دول البلقان فشنت غارتها على البلدان العثمانية في الغارة الاوربية في سنة ١٩١٢ وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر حزيران سنة ١٩١٤ اغتال تلميذ صربي الارشيدوق فرديناند ولي عهد النمسا في مدينة بوصنه سراي انتصاراً للجامعة السلافية فاكفهرّ وجه السياسة وكانت هذه الجناية الشرارة التي اولعت نيران البارود في الحرب الكبرى

﴿ التاريخ الحديث ﴾

وكان من نتائج هذا الاتجاه القومي الجديد ان الحسين بن علي شريف مكة عاصمة الاسلام أبى الانضواء الى الاتحاديين محركي النعرة العنصرية والسير تحت لواء « الجهاد المقدّس » الذي اعلنوه ثم دخل في مذاكرات حلفية مع بريطانيا ووثق كل الثقة بالعهود التي قطعت له لاعتقاده ان دولة معظمة خاضت غمار الحرب لادفع عن معاهدة تتعلق بسلامة البلجيك لا لتنزل للحس معاهدتها مع العرب بل كان يظن ان تحقيق الوطنية العربية قاب قوسين أو أدنى

وقد مكّن هذه العقيدة في نفسه تأليف حكومة عربية وطنية في دمشق حافظت على النظام وراعت شؤون الحرية والاستقلال . ولكن بين عشية وضحاها هاجمتها اعظم دولة حربية على وجه الارض فاكتسبت في سحقها شرفاً ولا خلّدت ذكراً وانما اقامت لنا الدليل على ان الاستقلال انما يؤخذ كما اخذه الترك . ولا مراء ان وجود هذه الدولة المستحدثة ولّد في قلوب الاهلين طمأنينة وثقة بوعود اوربا وتقديراً لحرمة عهودها ولكن مابثته الحكومة الوطنية بالجهد الجهيد على ألسنة الخطباء واقلام الكتاب هدمه الجنرال غورو برؤوس الحراب

﴿ الحالة الاجتماعية والدينية ﴾

ويمكنني ان اصف الحالة الحاضرة في الشرق الادنى من الوجهة الاجتماعية والدينية بأنها قد تكون في بعض الاقطار مجلى المتناقضات فهنالك المذهب الوهابي السعودي يحاول السير وراء طريقة السلف . وهنالك الحكومة التركية الكمالية المجددة . ومن الخطإ الفادح أن أحسب أن هذا التجدد في فتيان الترك حديث العهد بل كان في عصر الاتحاديين وانما كان مستتراً تغطيه الدعايات السياسية فيكون الغازي مصطفى كمال باشا قد أزاح الستار وأظهر جرأة في الحرية تليق بقيمته الحرية

ويلاحظ الباحث ، على ذكر هذا ، ميلين ظاهرين في الشرق العربي ميلاً الى الجامعة الاسلامية وميلاً آخر الى الجامعة العربية وحينما كانت البلاد متمتعة بالحرية مستوثقة من النجاة كانت الجامعة القومية بتقلية . ولما كان الحسين بن علي مليكاً على الحجاز مستقلاً

قال جملة تناقلتها الالسن في مختلف البقاع وهي : « لقد كنا عرباً قبل أن نكون مسلمين » ولا شك ان البسعلة الاستعمارية الاوربية تقوي الشعور بالحاجة الى الجامعة الدينية بين المغلوبين على أمرهم

وكما يوجد في بلادكم رجعي ورجعيون كذلك يوجد عندنا مثلهم . ودلني الدرس والتتبع على أنهم أنشأوا في البلدان العربية الناهضة إجمالاً ردّ فعل على التحكم الاوربي والسيادة الاجنبية . وأعرف زعيم حركة في العالم العربي يقول بتقوية التعصب الاعمى تخلصاً من الاسر مع انهُ شخصيًا من كبار المتسامحين . بل ان الالحاد في المسلمين كثيراً ما يكون نتيجتهُ التحمس في المبشرين . فالمبشر الذي لاهمّ لهُ الاّ الطعن في الاسلام والحط من قدر مؤسسيه قد يحمل بعض المسلمين في آخر الامر على الانضمام الى صفوف الملحدين في أوربا وأميركا لمحاربة الدين جهاراً فيخسرهم الاسلام ولا تربحهم النصرانية وهذا لعمري من الهدم الذي لامصلحة للاديان فيه . وأهل الاديان التوحيدية (على ما يدعونهُ من الفروق فيما بينهم) هم في سفينة واحدة فاما أن ينجوا معاً واما أن يغرقوا معاً

وأرى بين الرجعي والالحاد مذهباً جديداً أنصاره يدعون في العالم الغربي « مقابلين » وهم الذين يبنون عقائدهم الدينية وأحكامهم المذهبية على درس الدين بطريقة المقارنة . ولا بأس أن أبيّن لكم ملاحظاتي هنا على كلمة « الطريقة الحديثة » في مقابل « الطريقة السلفية » يعني تكييف الدين بحسب الحاجة الجديدة أو تركه على ما كان عليه حرفيًا فالحداثة بهذا المعنى تجرح التاريخ ولا تنسجم مع روح العلم لأن المتدينين في هذا التطبيق قد يعدلون ويفسرون ويحولون بما يخرج بهم عن دائرة الحقائق التاريخية القطعية . على أني اذا حرّمت هذه الكلمة عليًا فلا أحرمها اصلاحيًا واجتماعيًا لان جانباً مهمًا من الاصلاح الديني هو تعديل على النمط تحت تأثير الضرورة الملجئة الحاضرة

والطريقة التقابلية التي أشرت اليها تبني حكمها على التاريخ ولا تأخذ بعين الاعتبار التعديلات والاضافات والتفاسير الطارئة فالدين يجب أن يبقى وحدة تاريخية كاملة كما وضعهُ صاحبهُ وتبعتهُ قائمة على ما فيه من خصائص أصلية فقط لا على ما أصابهُ من زيادة أو نقصان

على أن درس هذا التعديل هو من ألذّ الدروس واشغل في الآونة الحاضرة باستخراج الدستور الذي يسير بموجبه وينقاد لحكمه فهو عنوان الشعور بالحاجة الى التغيير ويكون مقداره على نسبة هذه الحاجة ويدل من جهة أخرى على القوة الحيوية الكامنة في الدين الذي يفسره أصحابهُ على المقتضيات الطارئة كما يجري في النصرانية عند أنصار التوفيق من تطبيق النصوص على قضية الطلاق المدني الحاضر مثلاً وفي الاسلام على قضية تعدد الزوجات من غير أي نظر الى الحقائق التاريخية القطعية بل الغاية فيه المصلحة الاجتماعية كما يراها المفسر

قلت كما يراها انفسر لا كما هي في ميزان الحق لأن ما نظنهُ اليوم مصلحة تفسر نصوص الدين بحسبهِ قد يأتي يوم نرجع فيهِ الى النص الاصلي فنتمسك بهِ لانهُ يكون أقرب انطباقاً على ما نراهُ يومئذٍ حقيقةً جليةً

ومن البديهي انَّ لكل دين من الاديان مزايا خلابةً قضت ببقائهِ . وقد تسألوني وانتم قادمون من الغرب مقر النصرانية ماهي مزية الاسلام الخلابة في نظرك فاقول مزاياه كثيرة واجلاها البساطة — تلك البساطة العجيبة التي نراها اليوم في مضارب البدو في الصحراء تمثلاً ذهن الرجل الحكيم منا بجلالها وقلب الشاعر بجمالها

وانا محدثكم عن الهداية في الصحراء كما شاهدتها مما يثبت لكم طرفاً من هذه البساطة ويعيد الى الخاطر ذكريات العصر النبوي وكيف كان يحدث الانتقال من الكفر الى الايمان في يوم واحد . فقد نزلت في صيف سنة ١٩٢٦ على ماء منقطع يبعد عن آخر العمور نحو مائة كيلو متر يدعى الازرق فوجدت بيتاً من الشعر صغيراً فيهِ رجلان مختلفان جدَّ الاختلاف في نظافتها والبستها وحديثهما وان هما لم يختلفا كثيراً في سحنتها وتكوين اعضائهما فسألتهما من هما فقالا اخوان شقيقان من قبيلة تدعى الشرارات فقلت لم هذا الاختلاف في المظهر وعلى م هذا البون في الحديث فقال الشراري النظيف الفصيح انهُ اهتدى الى الاسلام منذ سنة ولكن أخاه لا يزال على الجاهلية وكانت هدايتهُ على يد الوهابيين فانقطع بتاتاً عن جميع عاداته الاولى من سرقة وقطع طريق وزنا وكان من قبل لا يعرف الماء فصار يتطهر كل يوم للوضوء ويستحم ويغسل ثوبهُ في اليومين مرة وقصارى القول كان « خنزيراً » مختوماً كما قال عن نفسهِ فاصبح انساناً نظيفاً . ثم التفت اليَّ وقال مامعناه: لو رأيتك في هذه الصحراء منفرداً لانقضضت عليك ومزقتك شر ممزق وسلبت منك هذا الحصان الذي تركبهُ وانتزعت منك هذه الثياب التي تلبسها اما اليوم فيحرم عليَّ ديني التعرض لك بسوء ولكنني اذا اشتبهت في امرك ذهبت بك حالاً الى القاضي في قريتات الملح لاسمع منهُ حكم الشرع فيك وانا مستعد لتنفيذ ما أومر بهِ . وكم كنت اود لو كنتم تفهمون العربية ان اتلو عليكم حديثهُ كما دونتهُ في مذكراتي ولكني اترك ذلك لمن يتكلم هذه اللغة الطليقة

ان لنظرة سطحية الى هذين الرجلين تكفي لبيان معنى الانتقال من الجاهلية الى الاسلام وانهُ لمن الخطأ الاخلاقي الفادح بل من الجناية الاجتماعية الفظيعة ان يحاول مبشر متحمس اقناع مثل هذا المهتدي الحديث بخطاء الدين الذي اهتدى اليهِ وبطلان الشريعة التي استمسك بها

واذا كان طول الاعمار كما اشار احد الشعراء لا يقاس بخطران الرقاص ولا بدوران الساعة بقدر ما يقاس بالأنات والآهات وخفقان القلب وكثرة التجارب ووثبات

الاختبارات فان رجلاً مثلي اضاف الى رؤيته الحرب العالمية وما جرّته من الويلات والمصائب انه عاش في امّة ناهضة تطلب عزّها من جديد يجب ان يكون شيخاً طاعناً في السن . فان عمري الادبي خمسون سنة لكن عمري العملي في الاخذ والعطاء مائة وخمسون سنة بل الف وخمسمائة سنة ! لاني قد شاهدت بعيني في غضون التطور الحديث الذي تطورته بلادي شيئاً من التاريخ القديم وشطراً عظيماً من روح القرون الوسطى وتصوراتها واني اعيش الآن في لب المدنية الحديثة : اعيش بجانب اللاسلكي وبمسح الهاتف بل تحت اجنحة الطيارة الحربية وما ترسله من مفرقعات تقتل الطائع والعاصي من غير تفريق . افلا أُحسَبُ بعد هذا « عصريًّا » صرفاً وعلى احدث طراز ؟

والآن ارجو ان تسمحوا لي يا ابناء انكلترا وخريجي مدارسها العالية وعماد مستقبلها الحافل بالمكتشفات ان اقول لكم بالصراحة التي تعهدونها من كل مخلص للحق ولبلاده ان ثقتنا بالانكليز وبعهودهم كانت ثقة عظيمة . وقد قلت «كانت» للدلالة على الماضي الذي مضى لا على الحاضر وبأيدي شباب ناهضين مثلكم ان يمتدوا الى نفوس العرب هذه الثقة وذلك بمحكم في سجلات حكومتكم ايام الحرب العظمى عن تلك البقع السوداء والخرايش ونحوها . كنت امس في تأبين حليفكم الملك حسين بن علي وقد مات قهراً من الاخلاف بالوعود والعهود فاقترحت ان يُعمَل له مأتم سنوي تمثل فيه هذه المأساة كما تمثل مأساة الحسين بن علي في كربلاء الى ان يعود الحق الى اصحابه

واني في الختام اعرف ان بعض كبار رجال السياسة والاجتماع ينقدون بلادنا بقولهم انها اتون العقائد المختلفة التي لا يمكن التوفيق بينها لكن الحوادث علمتنا — والحوادث اعظم مدرسة — ان نتساءل فلا نبيع مقومات حياتنا بدواعي اختلافاتنا . لا جرم انه ينشأ فيما بيننا — الاّ قيمن بقوا على عهد القرون الوسطى من ابناء الطوائف المتنوعة — شعور بالتآلف نبيل يبشر بمستقبل باهر ولا خوف عليه مطلقاً الاّ من اوربا المستعمرة التي لا يقر لها قرار الاّ بتحريك النعرات التعصبية الكريهة التي تضمن لها سيادتها . وان المثل الاعلى الذي ننشده في حياتنا الروحية قد وصفه وصفاً دقيقاً منذ عشرات الاجيال امام من امتنا وجدٌّ من اجدادنا مدفون بدمشق اسمهُ محيي الدين بن العربي فقد قال والتصوف اخذ بمجامع قلبه :

لقد كنت قبل اليوم انكر صاحبي اذا لم يكن ديني الى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لاوثان وكعبة طائف والواح توراة ومصحف قرآن
ادين بدين الحب اني توجهت ركائبه فالحب ديني وايماني